فوق خشبة قديمة

بقلم : حنيفة فتحي

ذهبت لمشاهدة الدرومة التي تجرى على المسرح لاوبريت (.....) بعد ساعة تصيتها من نشوة عجيبة، ثم تطايرت الى ساعتي لارى الوقت اذ كنت مرتبطة بموعد بعد ذلك ... ولشدة دهشتي وجدت ان ما قضيته من الوقت لم يكن نصف ساعة بل ساعتين وانا جالسة في مكاني مشدودة الاحساس الى ما يجرى أمامي دون انتباه للزمن .

في خلال هاتين الساعتين رأيت المشهد الذي يمرنون عليه ... مرتين المرة الاولى في فرقة متسلسة ... مستطيلة استبدلت احدى حوانطها الاربع بمرآة كبيرة ترى الراقصون والراقصات انفسهم وأشباحهم وهم يتحركون اثناء التمرين ..

كنا اربعة اشخاص ... رسام صديق انى من بلد أسيوى صديق ... وشاعر عربي اتى من بلاد بعيدة من اواسط اوربا ... ثم مخرج الاوبريت الفنان الرقيق ذو الافكار الحديثة والخيال الجرىء ... وانا .

جلسنا في مقاعدنا ساعتين يركن الغرفة مرتب المجموعة الكبيرة من الممثلين وهم يقومون بأدوارهم التي حفظوها من ساعات قليلة فقط ، وبينما هم يمثلون كان الملقن يقوم بدور عقلهم الباطن فيلقي اليهم الجمل والكلمات التي عليهم ان ينطقوا بها ، اما المخرج فقد كان يقوم بدور الرب الذي يحركهم كما يشاء ويرضى .

الغرفة على رحابتها تضيق بنا .... ونحن الاربعة فوق مقاعدنا وكأننا نشاركهم التمثيل ونقوم بينهم بدور المتفرجين ... هم الممثلون ونحن المتفرجون داخل اطار واحد ... وعلى غيرنا ان يصفق لنا عندما ينتهي المشهد .

ثم طلب المخرج من الممثلين ان ينتقلوا الى خشبة المسرح لكي يقوموا بأداء البروفة مرة اخرى مع باقي المجموعة من المغنين والراقصين والموسيقيين .

ودهشنا ... الرسام والشاعر وأنا الى صالة المسرح بينما انضم المخرج الى ممثليه وممثلاته .

المقاعد كلها خالية والصالة تسبح في الظلام ... ورائحة الاتربة تملأ الجو والبرودة تشيع في المكان الخالي من الاحياء . ووجدتني امشي على اطراف اصابعي ، والقي بكلمات همسا الى زميلي ... أخشى ان اقلق غيري من المشاهدين ... ولم يكن هناك أحد غيرنا من المشاهدين ... حتى الى ان كل كلمة وكل حركة في الصالة سوف تبدو شاذة ومثيرة في هذا الجو المظلم والعالم ... سوف يقلل من الاحترام لها بدور فوق الخشبة القديمة .

وتطلعت الى المسرح بعيدتين بتعطشتين ... هنا في هذا الجو اعتز على حلمي الحقيقية حياتي التي ارسمها حياتي ومحيطها احلامي .. حياتي التي تتلاشى امامها جميع مطالب الحياة الواقعية والمادية . بين الممثلين والممثلات والمغنين والمغنيات والموسيقيين والطائرين فوق المسرح بحركاتهم الموقوتة الرشيقة وهم في ملابسهم الملتصقة بأبدانهم تبرز جمال تكويناتهم واستعراض عضلاتهم ، انهم كالارواح الهائمة ... كالشياطين او كالملائكة سماء ورجال وليسوا من البشر ...

وانتحى كل فرد ركنا وسط الزحام وراح يعيد اداء دوره ويكرره حتى يتقنه هذا يغني بصوت مرتفع ... وذاك يصيح لنفسه ... (ولماذا اشتري من الاجنبي ؟) ولا احد يرد عليه ... بينما احد عازفي البيانو يعزف لحنا شرقيا رائعا يمتلأ حماسا وأملا وشجوة .. ثم احد يكرره ... ويكرره ... ويكرره حتى استحال في أذني الى دقات سهلة سخيفة ... يا لله !! اهكذا اذا ما انقلب الجمال الى روتين وتكرار فقد الفن روعته والجمال رقته وانطفأ بريق الامل ... !! وهذه الفتاة المشوقة تسبح خطوات الفتى النحيل الذي يقفز هناك في توقيت لا يدرك سره الا هو وهي ... فلا تسمع لاقدامهما وقع ، ولا يكاد يكون لهما ظل ايضا فوق الارض .

واستنشقت العبير الذي يملأ الجو من لدة كلما استنشق عبير الحياة ... التراب المعطر الذي يهب من ناحية المسرح ومن الديكورات ومن بين الكواليس . كم راودتني في ايام طفولتي رغبة جامحة لا تعلم رقص العالمة أطلها راودت معظم الفتيات ... ولكني كنت اجبن من ان احقق املي وانشئ مرغبتي ، ولكن لم اكن حينئذ بالقدر الذي يدعني من تحرير ضميري وخواطري من كل ما يحول

بهما بصدق وصراحه فوق ورق . وهذا استبدلت التعبير بالجسد بالتعبير بالقلم .

وراح خيالي يسبح ويسرح ويترجم ما اراه فوق المسرح الى قصه تحول فيها الممثلين والممثلات الى افراد اسرة واحدة يعيش كل منهم فيها محيطها . ويجتمع افراد الاسرة مساء كل يوم في صالة بيتهم الواسعه حيث يقوم كل منهم بممارسة الفن الذي يعشقه . هذا يرسم وذاك يبحث تمثالا . وهذه ترقص وتدور طول الوقت والآخر يغني بصوت مرتفع ..... واخرى تعزف على الكمان او البيانو .. وهكذا ... واو كان بالمكان جمع لقلم احدهم بتروبس لمؤة معبرة واشياء مطلعة لطبع جريدة تنشر اخباره فقط . كل مخلوق بحرا خياله كما يشاء ... كل واحد يعلم على الحب الذي يريحه ... لا احد يضجر ولا احد ينتقد لان لا احد يلتفت الى ما يفعل الآخرون ولا احد يهتم بغيره ولا يستمع الا لصوته و لكلامه . ويخرج الممثل بعد خروجا كثيرا ويأخذ معه بسيل . ويصبح الآخرون ان يفعلوه ان يلتفتوا اليه ... ان يعلموا انه الطبيب . وبكل هدوء يخرج المغني منديله من جيبه ويربط له الجرح ثم يمسحه من ذراعه ويفتح الباب ويدفع به الى الخارج قائلا له اذهب ابحث لنفسك عن طبيب . حتى هذه الحركة لا يلتفت اليها احد ... المغني فقط هو الذي تحرك لانه لايريد ان يشاركه احد في النجاح .

.... اظنها سوف تكون قصه مضحكة ساخرة .. قصة تسخر من ماساة الانسان الذي ولد ليعيش حياته ثم يموت ولا احد يراه او يسمعه .

مجرد اطلق سراح الخيال ليرى كسوب الآلة او القدر طالبا من الجميع اتحاد اماكنهم للبدء في العمل .

وانتظم الممثلون ..... وابتدا المشهد الذي رايتها في البرمة المغلقة يعاد امامنا ولكن كل شيء مختلف .. كل شيء في موضعه الطبيعي .. الممثلون يدخلون ويخرجون من بين الكواليس . والديكورات والمناظر تحدد المكان ومضى عليه رونقا والممثلون وقد ضم كل منهم عبقريته الى عبقرية زميلته وزميله متكونت منهم في الدقيقة الواحدة قصة مختلفة ومتباينة ممتعة رائعة ... هكذا يسير العمل الفني يعطي من نفسه كالقوى مالكون . ان كل قطعة على حدة جميلة ولكنها لا تعطي كثيرا ولا تعني شيئا يذكر ... لانها لاتهم الا صاحبها ولا تتخاطب الا معه . انها ماساة الانسان ... كل فرد ينحدث الى نفسه ... يعني لنفسه ... يخاطب نفسه .... يعزف لنفسه .... يرقص مرحا لنفسه ... ماساة الانسان الساخرة المضحكة . ولكن لو تجمع الواقع فوق الارض كما تجمع الخيال والفن فوق الخشبة القديمة في هارمونى رائع وانسجام جميل لاكمل كل فرد غيره وكتبت قصة الحياة كما يجب ان تكتب .

وخرجنا نحن الثلاثة من دار المسرح ..... وتركنا الرب مع مخلوقاته .... وتصافحنا ثم تفرقنا نحو الجهات . وذهبنا كل منا في طريق مختلف . وانا موقنة من ان الرسام والشاعر قد حمل كل منهما في قلبه نفس الاحساس الذي احسست به انا كاتبة القصة .